قصة قصيرة

حكاية بسيطة

إدريس الصغير

مهداة إلى روح أخي يحيى الطاهر عبد الله

حين تغرب الشمس أكون واقفاً في مواجهتها مستنداً إلى الحاجز القصبي، وتكون هي على بعد مترين مني. هكذا في مقابلتي، تتشح بالسواد. وتكون الشمس تماماً نصف قرص كبير أحمر يغوص في الرمل الأصفر البارد. أكون واقفاً، أستند بمرفقي تماماً على الحاجز القصبي الهش، وتكون شاخصة إلي تماماً بالعينين الدامعتين. وتكون السيجارة تماماً بين شفتي. تنفر خصلة شعر وتنكسر على الخد المتورد المبتل فيبعثرها النسيم على صفحة الوجه البريء.

أقول: أي الطرق تؤدي الآن تماماً إلى القاهرة.

لكنها لا تحار جواباً، فلا استند بعد على الحاجز القصبي، وأدوس عقب السيجارة بحذائي الكاوتشوك. حين ركبت النيل خلفت ورائي جباه سكان الكرنك السمراء الصلبة المتجعدة، والسواعد الدارعة، وبسمة في الحلق حيرى، وموالاً يعمر الأذن عند الأصيل. وما كان إلا أن يممت فركبت النيل، كل زادي قلب كبير وأمنية خضراء وأنف نافر.

وقلت: أي الطرق تؤدي الآن تماماً إلى القاهرة.

وقلت، ها أنذا أسير مخلصاً إلى مصيري. هل تكونين أنت قدري؟ حتماً أنت وحدك دون غيرك. وها أنت ترين أني أسير إليها بلهفة عاشق لا يشبه كل العاشقين. وما أنت ترين أن كل القطارات، كل المراكب، كل الحافلات تسير. فسرت لا كما سار السائرون، وقلت، اذكري هذا الفتى الأسمر النحيف ذا العينين اللامعتين، هل تعلمين أني كنت أحزن في ليالي الشتاء الباردة لحد البكاء، فأذكر الكرنك وليالي السمر وموال عشق وحكايا الجدات. وما كان إلا دمي أنزفه في الطرقات المسفلتة والحدائق العامة ومباني الوزارات. وما كان إلا دمي يتبخر في محرك سيارة فارهة مستوردة تمرق بجنون في ليلة شبق ولحم راقصة مغناج تتلوى متأوهة على سطح ممرد. ثم ما كان إلا دمي، اشربه خمرة رديئة في حانة مظلمة باردة.

حسناً. لنلعب هذه اللعبة.

تبدأ اللعبة حين تضيق الرغبة تصغر تصغر حتى تصبح في حجم اتساع سم خياط. من يدخل فيلا في سم خياط؟ من هنا إذن تبدأ اللعبة، حين تضيق الرغبة فتنحصر في طبق فول مدمس وطعمية وكوب ماء مترب.

حبيبتي.

هل أهمس في أذنيك بكلام مكرور مبتذل «نسكن عش عصفور ونطعم حبات فول» ثم ها أنا الآن تماماً ابدأ ممارسة اللعبة، أحمل قلبي الكبير وامنيتي الخضراء وأنفي النافر. اطوف فيهتريء حذاء الكاوتشوك، فإحدى وإحدى وإحدى إلى أن ارتمي بكامل ثيابي في مياه النيل فأرتوي ماء زلالا. هل تعلمين أن النيل هبة الله إلى مصر؟

ثم أخذوني يوماً من يدي. سجلوا اسمي في دفاتر ضخمة معبرة. صوروني في الأوضاع الثلاثة. تعرفوا على فصيلة دمي ولون عيني وخلايا ابهامي. ثم قالوا: ستمر علينا مرة كل شهر فنصرف لك راتباً. هل ترين أني الآن بالضبط تماماً ألعب اللعبة؟

في أصيل ذلك اليوم الحار، كنت كذلك استند إلى الحاجز القصبي. لم أكن أملك سوى قلبي الكبير وسيجارة تبغ أسود وموال عشق. ولم أكن أملك سوى الذكرى.

حتماً أنت الآن تذكرين. كان الصباح وكانت أشعة الشمس الأولى الذهبية الدافئة وطائر سنونو يرفرف بجناحيه فوق رأسينا. كنت احتضنك والجنين في بطنك يتضور جوعاً.

وهل ترين أننا الآن بالضبط تماماً نلعب اللعبة؟

حين كان يقف تماماً في مواجهتها بكرشه السمينة يضحك ملء شدقيه ويلوك غليوناً مستورداً، يتجشأ رائحة الديكور المحمرة والسمن البلدي. أنت الآن ترين تماماً أنهم يصادرون منّا عشّ العصفور وحبات الفول. ها أنذا الآن أذكر ونحن على الطوار نفترش الاسفلت البارد ونلتحف سماء الله الواسعة. ثم هوذا أراه تماماً يقف في مواجهتنا يضحك في تشفٍّ. وعند الغروب كنت أقف على ضفة النيل اشرب النسيم ومواويل الصيادين. وتمنيت في هذه اللحظة بالذات أن اصعد برج القاهرة فأتأمل المدينة من عل. رغبة بسيطة بريئة، تبدو لك المنازل والبنايات في حجم حبة فول، بينما تمتد رحابة السماء في اتساع لامتناه.

أشعلت سيجارة، وأرسلت خطوي على الطوار متمهلاً أسير بمحاذاة الواجهات الزجاجية. تحت وسط الزحام واللغط وزعيق أبواق السيارات وأضواء النيون ونافورات الماء. كان كل زادي قلب كبير وأمنية خضراء وأنف نافر.

المغرب